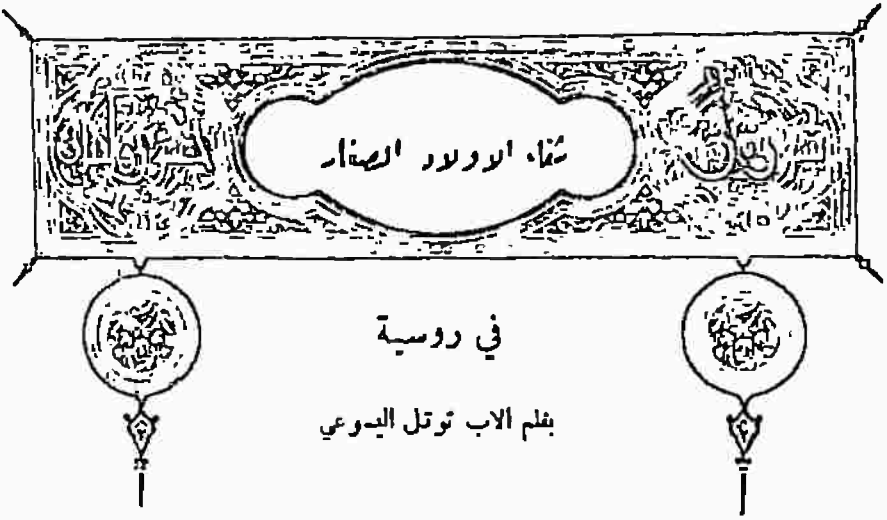

في روسية

بقلم الاب توتل اليسوعي

هو الله مبدع الانسان ، ومؤسس العائلة ، قال لأبوينا الاولين ولذرّيتهما : « اثمروا وتناسلوا » وربطهما بعقدة الزواج العديمة الانفصام ، حفظاً لحياة البنين وتربيتهم ؛ واعلن في الوصية الرابعة الواجبات المتبادلة بين الابوين والبنين صيانةً لبقاء الجنس البشري . وجاء المسيح ، فلم يغيّر الناموس القديم ، بل تممه فجعل الزواج سرًّا من اسرار البيعة السبعة وحرّم الطلاق وقال : « ما جمعه الله لن يفرقه انسان » (متى ١٩ : ٦ ؛ مر ١٠ : ٩) ورمق البنين خاصة بعين حنان الهي ورأفة لا حد لها ، فتهدّد باشدّ العقوبات من يجرأ على اذاهم وقال : « من شكك احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فاجدر له لو عُلّق في عنقه حجر الرحى وزجّ في لجة البحر » (متى ١٨ : ٦) فلا عجب من ثم ان ترى الكنيسة الكاثوليكية تتمسك بالمبدأ الالهي ، فتعلن وحدة الزواج وقداسته ، وتراعي حقوق الابوين وتعظمهما كما عظمهما الخالق بالوصية الرابعة ، وتبذل قصارى جهدها في العناية بالاولاد منذ دخولهم العالم : فتحتضنهم بالمعمودية ، وتثبتهم بنعمة الله بالميرون ، وتسنّ في سبيل صالحهم الروحي والمادي سائر الشرائع ، التي من شأنها ان تحفظ لله جيلاً مختاراً وامةً مقدسة . » (١ بطر ٢ : ٩)

اما البلاشفة الشيوعيون فمن جملة ما اقترفوه على الحياة الاجتماعية من الجنايات انهم سحقوا نظام العائلة ، وجرّدوا الابوين من سلطتهما ، واتخذوا الناشئة آلة اختبارية لتطبيق مباديهم الجنونية ، واستعبدوها في سبيل الدعاية الى الشيوعية

والمكافحة عن الثورة العامة التي يبغون اثارتها في العالم . واليك ملخصات اقوالهم :

« ان العائلة انما هي اختراع من مخترعات الكنيسة ، ونظام غرضه مجاراة الفئة الغنية على اميالها بالتمتع برغد العيش ورفاهيته . فمن واجب الشيوعيين اتلاف العائلة ... ولا بد لهم لبلوغ غرضهم من ان يقبضوا على زمام المرأة ... فيجب اذن عليهم ان ينتزعوها من بيتها ، ويميتوا فيها عاطفة الانانية وغريزة الحب الامري.» وقالوا : « لا بأس من كيان الزواج لكنه لا يربط الزوجين بواجب حقيقي متبادل ولا يضطرهم الى السكنى معاً او الى حفظ العهود . ويكفي ان يعرب احدهما عن ارادته بالطلاق لكي يتم الطلاق شرعاً ... »

وبلغ من البلاشفة الكبرياء وعماء البصيرة الى الاشادة بمبادئهم على رؤوس الملا ، والدعاية الى اعتناقها ، زاعمين انها الدواء الشافي لادوائنا الاجتماعية وانها قديرة ان تُعيد للجنس البشري عصره الذهبي بل ترجع به الى سعادة الفردوس واليك حادث مصداقاً لكلامنا :

في ١٤ نيسان من العام ١٩١٨ ، قام تروتسكي احد زعماء بلشفية موسكو وخطب في جمهور من العمّال ، فقال :

« اننا سننشىء دولة الاخاء . وهذه الدولة هي الارض التي اورثناها الطبيعة . فنأتي على استنباط خيرات الارض طبقاً لمبادي التضامن ، فنقلب وجهها ونجعلها جنة وحية غناء ، ومرتعاً يمرح فيها اولادنا كانها الفردوس ! كانت ايام آمن فيها البشر بحقيقة الاساطير الفردوسية . لكن ايمانهم لم يكن الا اضغاث احلام وعنواناً لتلهف نفس الانسان الاسيرة شغفاً بحياة حسنى ... اما نحن فنقول ان تلك الجنة سنخلقها على الارض بايدي العمّال وسوف تكون مفتوحة للجميع لاولادكم واولاد اولادكم على مدى الدهور »[1]

ومما يؤسف له كثيراً ان بعض المجلات والصحف العربية تعلق بكل

1) Rézanof, *la 3e Internationale communiste. Le Komintern. Bossard, 1922. p 17*

حديث مستظرف وتشيد به ، وغايتها القصوى ان تلهي القراء بكل ما امكنها من حسن او قبيح فتقص عليهم من اخبار البلشفية ، ومن حركات التجدد في البلاد المسكوبية ، وترقية الامة وتعليمها ، ما يوهم السذج ان هناك نهضةً ورقياً . اما الحقيقة فان بلاد المسكوب التاعسة اخذت تبيد عن بكرة ابيها لان دودة الخراب تنخر عظامها بشخص بنيها التاعسين ، كأن لعنة المسيح حلّت عليها . كيف لا وقد زعزعت اركان العائلة ، وشككت الاولاد الصغار فاصبحوا اولاد افاعٍ ، وانقلبوا على امهم الرؤوم شرّ منقلب : نشأوا قطيعاً هائلاً يهيم على وجهه في مشارق البلاد ومغاربها ، يجرّ الاوبئة والدمار ويقف شاهداً حياً على انحطاط الاداب ، فيسم جبهة البلاد الروسية بسمة الذلّ والعار . وسوف نرى ان حكومة السوفيات نفسها صارت تنظر الى امر الاولاد المتروكين بحيرة وخشية وان الصحافة والمجلّات لا تأتي على حديث في بلاد المسكوب الا وتذكر فيه الاولاد المتروكين عبرة وانذاراً

* * *

في العام ١٩٢٨ ظهر كتاب عنوانه « موسكو على المكشوف » الفه رجل قضى خمساً وثلاثين سنة في روسية ، فكان في الماضي قنصل بلجكة فيها ، ثم ندب ممثلاً لجمعيات الاسعاف التي تألفت لاغاثة المنكوبين في روسية . هذا الرجل هو مسيو جوزف دوييه[1] وصف حالة الانحطاط الادبي الذي صارت اليه بلاد السوفيات فقال . (وجه ١٠٣) :

قد يكون تأثير العائلة ونفوذ الابوين حائلاً دون بلوغ المدرسة البلشفية غايتها من نفث سمتها في الناشئة واسقاطها في دركات العار ؛ ولكن اين العائلة؟ واين هما الابوان للاولاد الايتام او المتروكين؟

سلبت البلشفية الافراد حقوق الملك ، فسبّبت الفقر المدقع ، وطرحت سكان قرى برمتها فريسة للجوع . اما الذين نجوا من مخالبه فتاهوا في البراري والمدن ، ملتمسين لقمة يسدّون بها رمقهم . هلك الكبار في التيار الهائل ، وعاش الصغار . فتكوّنت منهم نواة ما عتمت ان نمت وتفاقم شرها بسبب

(١) Joseph Douillet : *Moscou sans voiles. Paris, 1928*

البلشفية . لان حكومة السوفيات ، باعلانها سقوط العائلة وحلها عقدة الزواج ، فكّت اواصر القرابة ، واخرجت البنين عن طاعة الابوين وارسلتهم على وجوههم فمضوا وانضموا الى الهاربين من براثن الجوع وصاروا آفةً من آفات البلاد اذ اصبحوا جيشاً جرارًا دأبه الخراب .

احصت مجلة العالمين عددهم فقالت : لقد اختلفوا في احصائهم . فقالوا انهم كانوا ملايين بين ١٩٢٢ و ١٩٢٤ وقالوا بضع مئات الوف ، او عشرات الوف ، في العام ١٩٢٥ .

ونشرت الموسوعة السوفياتية ، للعام ١٩٢٨ ، احصاء الاولاد المتروكين فقالت انهم ٣٣٤٠٠٠ . ان البون لشاسع بين احصاء واحصاء . فما هي الحقيقة ؟ هي ان الحكومة قلّلت عدد الاولاد المتروكين خشية من إثارة الرأي العام في البلاد عليها .

والاعداد الضخمة اقرب الى الحقيقة . جاء في اعمال مؤتمر السوفيات الثالث عشر (١٩٢٧) : « نقصنا الاولاد المتروكين في المراكز العظمى ، فتوهم الناس انهم قلّوا عددًا في البلاد كافةً . ولكن اخبار الولايات تبدّد الاوهام . » وفي العام ١٩٢٨ ، اعترفت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بان الاولاد المتروكين في شوارع المدن فقط يحصون بالالوف . وقالت جريدة البرافدا : « لا مغالاة بالقول ان عدد المتروكين من الاولاد الى اليوم لا يزال يحصى بالملايين . »

كيف يعيش هؤلاء البائسون . ليس منهم في ملاجئ الحكومة الا فئة صغيرة . اما السواد الاعظم منهم فيعيشون في البلاد : يقصدون الى اماكن الاصطياف ، شمالًا في فصل الحر ، ثم يرجعون على اعقابهم ويرحلون الى الجنوب ايام الشتاء . وقد يفضلون الاقامة في المدن وخاصة في موسكو على امل ان يجدوا فيها معيشتهم بطرائق سهلة ؛ وقد يدفعهم اليها احيانًا رغبتهم بالعلم ورجاؤهم بدخول مدرسة . فيجولون الشوارع ويستعطون ويسرقون ويحتالون على ايجاد مأواهم في الليل . الى اين الذهاب ؟ الى البيوت الخراب ، الى المحطات في حافلات القطار الحديدية ، الى اينما حصلوا على مسقوف او محل دافئ ولو جوف قدر الاسفلت الواسعة المخصصة لطبخ اسفلت الطرقات ، وعلى هذا المنهج

يسلكون في موسكو وفي غيرها من المدن الكبرى كلينغراد وقازان وسامرى ورستوف واودسا.

ويلاه ! الى اي عمق هبط البلشفيون بالناشئة الروسية . وما اشد قساوتهم على الاولاد الصغار ! ان هؤلاء المساكين المتروكين اغلبهم من عائلات العمال والفلاحين وهم بازدياد يوماً على يوم. جرى احصاء سنة ١٩٢٧ ، جاء فيه ان ١٥ بالمئة من المتروكين عمرهم يتراوح بين الثلاث والسبع سنوات ؛ و٥٧ بين الثامنة والثالثة عشرة. وهذا دليل واضح على انهم جاؤوا الى الوجود على عهد البلاشفة فلا حبذا عهد التوحش والذل !

وان من كان البلاشفة اوصياءهم صاروا مرتعاً للمفاسد والرذائل . فانتشرت في مصاف الاولاد المتروكين جراثيم الامراض الجسدية والروحية: السكر ، والقمار ، وشرب المخدرات كالكوكايين ، وتسربت في عروقهم سموم الامراض الزهرية . وزادتهم حالتهم الرثة وفقرهم المدقع وقاحة ونشاطاً على ارتكاب الجنايات . فابتدأوا بسرقة الخبز واستحلوا مال الحرام . وصاروا يتواطئون على السيدات في الطرق يعدو احدهم بسرعة الباشق فينتزع الكيس الذي في يدها ، واذا قاومته عضها بنابه ويا ويلها من عضة المتعصب الصغير المصاب بالامراض المعدية.

ورب صغير بينهم لم يردعه رادع عن ارتكاب القتل . فيا لها من ناشئة تعساء. يا لها من أمة بائرة !

وضعوا لائحة الجرائم في الجمهورية الاشتراكية المتحدة السوفيتية المسكوبية فكان عدد الجنايات التي ارتكبها الاولاد المتروكون خارجاً عن موسكو ٢٩,٥٢٧ منها ١٣,٦٤١ سرقات خيل . ٨٨ سرقات بالسلاح ، ومنها ٢٦٥ اضرامات النار تعمداً ، و ١١٨ قتل و ٣٢٤ تقطيع اعضاء وجروحات . و ٢٣٦ جريمة ضد الاداب.

وكان بين ١١٨ قاتل ، عشرون يتراوح عمرهم بين عشرة واثنتي عشرة سنة ، واثنان وعشرون دون السنة العاشرة من عمرهم. وكانت نكبات الحريق تقريباً كلها من صنيع اولاد لم يتجاوز عمرهم الحادية عشرة.

اما في موسكو فقد احضروا عام ١٩٢٥ امام لجنة القضاء للغير بالغين رشدهم ٢٤٤٥ ولداً كان منهم ٤٠٠ مريض و ١١٤ ممتلأ من تأثير المخدرات و ١٦ مريضاً بالسيفيلس و ٥٥ معتوهاً.

وفي العام ١٩٢٦ بين ١٠٢ ولداً من المتروكين المعروضين للفحص كان اثنان فقط لا يستعملان المخدرات . ومن ١٩٢١ الى ١٩٢٤ وقف خمسون الفاً امام لجنة القضاء للاحداث وكان منهم خمسة بالمئة مصابين بالامراض المعدية.

نعم ان حكومة السوفيات فتحت ملاجئ للاولاد المتروكين ولكن عددها وتجهيزها دون المطلوب بما لا يقدر. ان اثنين واربعين بالمئة من الملاجئ ليس فيها اسرّة كافية لعدد الاولاد فينام هؤلاء اثنين او ثلاثة في سرير واحد. وقد عششت فيها الحشرات كالقمل والبق والبراغيث ، وهي ناقصة من الحاجيات الضرورية لصحة الاولاد وتعليمهم . والشاهد على الحالة التعيسة المخيمة على ملاجئ الحكومة هي الصحافة البلشفية نفسها : وصفت الملجأ السابع عشر في مدينة قازان فقالت : « هي غرفة صغيرة ملؤها فرشات لا الحفة عليها . هناك خرق بالية عوض الكتان . وفي كل سرير ولدان . والفرشات محشوة حشيشاً يابساً منتناً كريه الرائحة . وبالقرب من الشبابيك برك مياه تجمعت من ذوبان الثلج . ساقوا الاولاد الى الحمام في الربيع مرة واحدة فقط ، وانقطعوا من ثم عن تغسيلهم . وليس في الملجأ حنفية . وكل يوم في الساعة السابعة صباحاً ، وفي البرد القارس ، يتراكض الاولاد عارين في الطريق ليغتسلوا بالحنفيات العمومية . »

ومن هم المعلمون في تلك المعاهد ؟ منهم المعلم هكيسوف وقد طُرد من وظيفته لما اثبت عليه من الجنايات المخالفة للآداب ... وادت الحالة التعيسة ببعض البنات الى الانتحار للتخلص من الحمل والولادة ! ومنهم استاذ آخر ! هو سيدر الشيوعي الذي لا ينفك عن الضرب وهو يكتفي ويكسي عائلته بالاقمشة التي ارسلها المحسنون للاولاد . اما هؤلاء المساكين فليس عليهم الّا لباس الكتان في قلب الشتاء ، ولا بدلة لهم ، ولا احذية ، وهم في حاجة الى من يعلمهم النظافة ويعتني بهم . وقد اصبحت دور المنامة والاقامة في الملاجئ اشبه بالمراحيض.

وهذه الحالة على تعاستها تتفاقم يوماً فيوماً ، لان السوفيات عاجزون عن مواصلة اسعاف الاولاد المتروكين. كان عدد اللاجئين منهم الى دور الحكومة ٥٤٠,٠٠٠ سنة ١٩٢١. ثم صار ٢٥٢,٣١٧ عام ١٩٢٣ ، الى ان بلغ ٢٠٠,٠٠٠ عام ١٩٢٧ ، فتقلص ظلهم في الملاجئ ، لا عن قلة عددهم في البلاد وهم فيها ملايين كما بيناً سابقاً ، ولكن لانهم لم يستطيعوا الصبر على مصاعب ملاجئ الحكومة . فمن هذه الادلة كفاية للشهادة على النظام السوفياتي الحالي بانه عاجز عن مداواة الداء ، وايواء الاولاد المتروكين وتزويدهم بما يحتاجون اليه من العناية في سبيل تربيتهم نفساً وجسداً.

وفي كلامنا حجة دامغة على ان الذين نقضوا نظام العائلة ، وهدّدوا سلطة الابوين وشككوا الصغار ، استمطروا على نفوسهم لعنة المسيح ومقت البشر.

ولعلك تهزّ رأسك ، ايها القارئ اللبيب ، وتقول : لقد خلت في بلادنا الشرقية كوارث عدة ، اما البلشفية فنحن آمنون شرّها والحمد لله !

ولكن هل خطر على بالك أن للبلشفية يداً عاملة في الشرق ، وان لها فيه جيشاً لا يستهان بعدده . في العام ١٩٢١ احصوا عدد الجيش الشيوعي الدولي فكان في مصافّه ١٥٠٥ من سكان مصر ، و ٥٠٠ من سكان فلسطين ، و ٢٠٠٠ من اهل العجم ، و٥٠٠٠ من غيرهم.

ونشرت الصحف في حينها[1] اخبار علاقات الثوّار السوريين مع الشيوعيين الافرنسيين المتفقين مع موسكو على احداث الثورة البشرية العامة . وأكّد لنا الخبر.[2] ان البلشفية هي المناصرة لكل عناصر الاضطراب في الشرق ، والمعادية لروح الانتدابات كافة ، لا طمعاً بان تكتسب للبلاد الشرقية استقلالها ولكن لتسقطها في وهدة الفوضى كما نشاهد الامر في افغانستان. فيصير الشرقيون بين يديها آلة هائلة تنفخ نيران الحروب على العالم . فليس اذن خطر البلشفية بعيداً عنا ، كما انه ليس بعيداً عن سائر العالم . ولذلك دعانا الاب الاقدس في رسالة الصلاة ، في شهر آذار ، الى الابتهال طالبين من الله عز وجل ان يكسر شوكة الشيوعيين الملحدين ويعطي العالم الامن والسلام.

١) المشرق ١٩٢٩ ص : ٦٦ ٢) P. Gautherot, *le monde communiste. Paris, 1925*